

فلسفة غزوة بدر

للسيد عبدالمعالي الصعدي

المشهور بيننا
أن المسلمين لما
انتهوا من غزوة بدر
اختلفوا في شأن
من أسروه من
المشركين ، فرأى
فريق قتلهم ، ورأى
فريق أخذ الفداء
منهم ، فجمع النبي
صلى الله عليه وسلم
أصحابه ليشاورهم فيما



يفعله مع أولئك الأسرى ، وكان يأخذ بالشورى في أموره ، ليعلم
أصحابه الأخذ بها ، وإن كان هو غنياً عنها ، لأن من يكون معه
وحى السماء ، لا يحتاج إلى رأى أهل الأرض ، وهو عرضة للخطأ
والصواب .

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم : ما تقولون
في هؤلاء ؟ (يعنى الأسرى) ، فقال أبو بكر رضى الله عنه :
يا رسول الله ، قومك وأهلك ، إستبقهم واستأنهم ، لعل الله
أن يتوب عليهم ، وأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار .
وقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك
فدعهم نضرب أعناقهم . مكّن علياً من عقيل (أخيه)
فيضرب عنقه . ومكّن حمزة من العباس (أخيه) فيضرب
عنقه . ومكّن من فلان (نسيب لعمرو) فأضرب عنقه ؛ فإن
هؤلاء أئمة الكفر !

وقال عبدالله بن رواحة الشاعر المعروف : يا رسول الله ،

أنظر وادباً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم
ناراً ... وهو رأى يتفق مع طبيعة الشراء في تأزيم بالماطفة
أكثر من العقل ، وشأن الماطفة المغالاة في الحب والبغض ،
وشأن العقل الاعتدال فيهما .

نسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ، ثم تركهم
ودخل ، فقال ناس من أهل المجلس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال
ناس منهم : يأخذ بقول عمر . وقال آخرون : يأخذ بقول عبدالله
ابن رواحة . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
— إن الله ليولين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، ويشد
قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر
مثل إبراهيم ، قال : « فَن تَبَسَّيْتِ فَإِنَّهُ رَمَى ، وَمَنْ عَصَانِي
فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ، قال : « إن
تُعَذِّبُهُمْ فَأَبْهَمُ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَغْزِيُّ
الْحَكِيمُ » . ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا
عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . ومثلك يا عبدالله بن رواحة
كشمل موسى ، قال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ
عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليوم أنتم عالة ،
فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ...

وروى ابن عباس عن عمر أنه قال : فهوى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء .
فلما كان من الندجئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر
قاعدان يبكيان ، قلت : يا رسول الله أخبرني من أى شيء تبكى
أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء
تبأكيت لبكائك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى
على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أدنى
من هذه الشجرة — لشجرة قرية منهم — فأرسل الله عز وجل
عليه (ما كان ليلى) أن يكون له أسرى حتى يشحن
في الأرض ، يُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ،
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . كَوَلَّا رِكَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ
فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

فَأَمَّا مَنْ بَدَأُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۖ
— البسوط للرخسى ج ١٠ ص ٢٤ — وهذا الذي يذهب
إليه الحسن وعطاء في الأسير هو الذي تذهب إليه القوانين
الحربية الحديثة

ولهذا كله لا أرى أن للسبب في نزول آيتي الأنفال هو إنكار
الفداء الذي أشار به أبو بكر واختاره النبي صلى الله عليه وسلم
على رأي عمر وعبد الله بن رواحة ، ولا سيما أن هذا الفداء
في غزوة بدر لم يكن أول فداء أخذه النبي (ص) من الأسرى ،
فقد أخذ الفداء فيما حصل قبلها من السرايا ، ولم ينكر الله عليه
أخذه له ، وكان ذلك في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين
مكة والطائف ، فرصد فيها عيراً لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة
من تجارتهم ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله
الجزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، فقتلت
سرية عبد الله بن جحش بعضهم ، وأسرت عثمان بن عبد الله
والحكم بن كيسان ، واستأقت العير إلى المدينة ، فبعثت قريش
في فداء الأسيرين ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم فداءهما . فأما
الحكم بن كيسان فأسلم وأقام بالمدينة حتى استشهد يوم بدر
مؤتة ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً

والذي أراه أن تينك الآيتين زائناً في أمر آخر حصل
في غزوة بدر ، وذلك أن تلك الغزوة كانت أهم قتال بدأ به
المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة ، وكانوا لا يزالون في نشاطهم قلة
بالنسبة إلى قريش ، وهذا إلى غيرهم من المشركين الذين تسع
بهم الجزيرة ، فاهتم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها ، وأمر الله
فيها المسلمين ألا تأخذهم في قتال المشركين رافة ولا شفقة ، وأن
يشخروا فيهم إذا مكن لهم منهم ، حتى يهتوا أمرهم ، ويضعف
شأن المشرك بضعفهم ، ويكون ما يحصل لهم عبرة لغيرهم من
المشركين . وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الأنفال (سَأَلِى
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) — ١٢

ولكن المسلمين في هذه الغزوة لم يكادوا يرون النصر فيها بعد
أن قتل الله من قتل من سناديد قريش حتى أدركتهم نحيبهم

فهذا هو المشهور بيننا في سبب نزول هاتين الآيتين (٦٧، ٦٨)
من سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر ؛ وهو يفيد أن الله
تمالى غضب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه لهذا العمل
الإنساني العظيم الذي أشار به أبو بكر ، من البر بالأسرى والرفق
بهم . وهذا مع أن الذي أشار به أبو بكر هو الذي يتفق مع
ما جاء به الإسلام في شأن الأسرى ، ومع ما امتازت به الحروب
الإسلامية على الحروب السابقة من الإحسان إليهم . على أن الله
قد نصر المسلمين في غزوة بدر نصراً عظيماً ، وشق نفوسهم من
سناديد قريش ، فقتلوا فيها كلهم ، ولم يفلت إلا قليل منهم ، وكان
منهم في الأسر النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ،
فقتلها رسول الله في طريقه إلى المدينة ، ولم ينتظر بهما ما فعله
في غيرهم من الأسرى . ولما اختار رسول الله رأى أبي بكر
في الفداء قال له عبد الله بن مسعود : إلا سهيل بن بيضاء ،
فإني سمعته يذكر الإسلام . قال ابن مسعود : فسكت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فإرايتني في يوم أخوف أن تقع على الحجارة
من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : إلا سهيل بن بيضاء

ولم يبق بعد هؤلاء في الأسرى إلا اللباس بن عبد المطلب عم
النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا عقيل بن أبي طالب أخو علي ، وإلا
أمثالهما ممن لم يكن من أولئك السناديد . وقد حقق الله في كثير
منهم رجاء أبي بكر (لعل الله أن يتوب عليهم) فأسلم اللباس بن
عبد المطلب ، وأسلم عقيل بن أبي طالب ، وأسلم كثير غيرهما من
أولئك الأسرى . والرأى الذي تحققه الأيام لا يليق بحكمة الله
تعالى أن يضرب من إشارته على غيره ذلك النضب

ولأرى أن الإسلام إذا كان قد أباح قتل الأسير مع
ما أباحه فيه من الاسترقاق والإطلاق بفداء أو بدون فداء ، فإنه
يجب ألا يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى والأسباب
الوجبة . وإنه ليمجني ما روى عن الحسن وعطاء رحمهما الله
تعالى أنهما قالا : لا يُقتل الأسير ، ولكن يُفادى أو يمن عليه ،
وكنهما اعتماداً في ذلك ظاهر قوله تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْمَثْتُمُوهُمْ فَاسُدُّوا أَلْوَانَكُمْ